الفصل الرابع

دراسة تطبيقية تحليلية ومقارنة بين الحضارات

تحليل ومقارنة أسباب قيام الحضارات

وضع ابن خلدون أسبابًا سياسية واجتماعية واقتصادية تحدد قيام الحضارات وسقوطها، وبالرغم من تركيزه على سقوط الحضارات وزوالها نتيجة نزعته التشاؤمية، إلا أن أسباب قيام الحضارات التي ذكرها ابن خلدون توضح مدى فطنته ويقظته وتأثره بالشريعة الإسلامية في تفسير نشأة الحضارات وسقوطها.

ويتضمن هذا الجزء استعراض أسباب قيام الحضارات المختلفة مع مقارنتها بما ذكره ابن خلدون من أسباب لقيام هذه الحضارات للتعرف عن قرب إلى مدى التطابق والاختلاف بين أسباب قيام الحضارات عند ابن خلدون مع أسباب قيام الحضارات القديمة والحديثة على حد سواء.

تحليل ومقارنة الأسباب السياسية لقيام الحضارات

يتضمن هذا الجزء الأسباب السياسية لقيام الحضارات عند ابن خلدون مع تحليلها ومقارنتها مع الأسباب السياسية لقيام الحضارات المختلفة في ضوء منهج ابن خلدون عن قيام الحضارات.

أ. فكرة العصبية والدولة

يرى ابن خلدون أن قوة العصبية من أهم أسباب قيام الحضارات، وتكون أقوى في مجتمع البداوة حيث تغيب المصالح الشخصية وتكون المصلحة العامة هي الهدف،

ولذلك تتمكن من السيطرة على المدن (الحضر) وإنشاء حضارتها الخاصة بها ووراثة أملاك الحضارة السابقة عليها[١].

وعند مقارنة ذلك مع الحضارات المختلفة يتضح أنها جميعها اتفقت مع فكرة ابن خلدون في العصبية والدولة كما هو موضح في ما يأتي:

أ. سعي كل حاكم من حكام مدن سومر للحصول على لقبة (لوكال) أو الملك عن طريق استخدام عصبته في إخضاع الدول المجاورة وضمها إلى ملكه، حيث دفعت رغبة بعض الحكام في الظفر بلقب لوكال (ملك) إلى توحيد البلاد تحت قيادة واحدة استخدمت العصبية وسيلة لإخضاع الدول المجاورة والظفر عليهم[٢].

ب. في الحضارة البابلية تصدى (حمورابي) لـ (ريمسين) ووحد الجنوب كله، وكذلك تخلى (زيمريلين) عن مواجهته، ما جلب إمبراطورية بابلية مستبدة مركزية، حيث أحكم حمورابي قبضته على الدول التي ضمها لملكه خوفًا من انفصالها، وهذا بالطبع كان بمساعدة عصبته التي أسهمت في تغلبه على العصبيات الأخرى وإخضاعها[٣].

ج. في الحضارة الإغريقية، سواء في عهد الملوك أو عهد النبلاء أو عهد الطغاة أو عهد الديموقراطية، أحكم الملوك والنبلاء والطغاة والديموقراطيون السيطرة على البلاد اعتمادًا على عصباتهم، حتى إن النبلاء كانت لهم قوات خاصة تحميهم وتدافع عنهم من الموالي والخدم الذين استخدموهم في حماية ممتلكاتهم والدفاع عنها وضم مزيدًا من الممتلكات إليهم، كما أن دولًا مثل أثينا وإسبرطة فرضت نفوذها وسيطر ملوكها على البلاد وتوسعوا

---

(١) عبدالقادر: **منهجية ابن خلدون في تدوين السيرة النبوية وتفسيرها**، (ص١٦١-١٦٢).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٨).

(٣) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٨٨-١٩٢).

برًّا وبحرًا اعتمادًا على عصبياتهم في البداية ثم الجيوش التي أنشؤوها في مرحلة لاحقة[١].

د. في الحضارة الصينية وحدت الصين على يد الإمبراطور (شي هوانج - تي) الذي استخدم عصبيته في السيطرة على أراضي الصين وفتح البلاد واحدة تلو الأخرى وضمها إلى ملكه، وزادت عصبيته حين ساد مفهوم سياسي أعطى هالة للحاكم الإمبراطور، بعدّه رئيس طبقة النبلاء وسلطته مستمدة من السماء وعلى الناس أن يخضعوا له[٢].

هـ. في الحضارة الفرعونية انحدر الفراعنة من أسر حاكمة مختلفة، استمدت قوتها وسيطرتها على الحكم من عصبيتهم، وبالإضافة إلى دور الكهنة في الترسيخ لهذه العصبية التي زادت من قوتها، في ظل قيام النظام السياسي بأكمله على الملك وفق نظرية الحاكم الإله، حين عد الملك ظل الله في الأرض ويحكم بأوامره، وفي الأسرة الخامسة أضاف الملوك إلى صفاتهم لقب (ابن رع) إله الشمس الذي خلق العالم بأسره والذي يسبغ نعمه على الكون كله، ومن ثم فهو وريثه الشرعي، ما زاد من العصبية والقوة التي مكنت ملوك مصر الفرعونية من السيطرة على الحكم مددًا طويلة[٣].

و. في الحضارة الفينيقية سيطر الملوك على الحكم، وكذلك مجالس الحكماء التي أنشئت لاحقًا اعتمادًا على عصبياتهم، فقد كان الملك وكذلك أعضاء مجالس الحكماء من أشراف القوم وأعيانهم من أصحاب النفوذ والجاه والسلطان ذوي العصبية الضخمة، ما ساعدهم على حكم البلاد والتوسع وإنشاء المستعمرات عن طريق العصبية[٤].

---

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٨-٥١٢).

(٢) إيمار، وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٢٠).

(٣) لالويت: **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، (ج١-ص٢٩٢).

(٤) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٥-٣١٦).

ز. في الحضارة الرومانية، سواء في مرحلة النظام الملكي، أو مرحلة النظام الجمهوري، أو مرحلة النظام الإمبراطوري، ارتكزت سياسة حكام روما على التوسع عن طريق محاربة جيرانها والانتصار عليهم وضم أملاكهم وأراضيهم إليهم، وتحويل الأسرى إلى عبيد لاستخدامهم طاقة إنتاجية مجانية، واعتمدت روما على قوة عصبيتها التي ازدادت بصورة كبيرة في مدة حكم (يوليوس قيصر)، فبالرغم من أنه كان من طبقة النبلاء إلا أنه تقرب من طبقة العوام، وكسب حب غالبية الشعب الروماني وتقديره، وكون جيشًا كان يخضع بكامل الولاء له فكسب عصبية إضافية سواء من حب الجيش وولائه أو حب الشعب الروماني، وحقق انتصارات مدوية اعتمادًا على هذه العصبية[١].

ح. أما الحضارة الإسلامية فقد اتسمت بعصبية قوية جدًّا أسهمت في القضاء على أكبر إمبراطوريتين في العالم القديم هما: إمبراطورية الروم، وإمبراطورية الفرس، نتيجة العصبية البدوية التي اتحدت مع العصبية الدينية، فنشأ عنهما عصبية قوية ساعدت على مواجهة المخاطر والحروب والتصدي لها، ومن ثم التمكين للحضارة الإسلامية[٢].

ط. وبالرغم من قيام الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية) على نزعة مادية بحتة، إلا أن العصبية التي تمثلت في زيادة النزعة الاستعمارية، وخداع الشعوب الأوروبية وتضليلها تحت ستار الدين جلبت عصبة انهمكت في حروب استعمارية تمكنت عن طريقها من السيطرة على غالبية أجزاء العالم لنصرة النصرانية وترسيخها كديانة في العالم كهدف وهمي، ولتصريف منتجات الثورة الصناعية كهدف رئيس، عن طريق إقامة المستعمرات المختلفة والحصول منها على المواد الخام والأولية بأرخص الأسعار، وتصنيعها وإعادة

---

(١) باقره: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٦-٦٦٨).

(٢) الذوادي: **أضواء على مفهوم الطبيعة البشرية في الفكر الخلدوني: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص١١٠-١١١).

تصديرها بأسعار تضمن دخلًا اقتصاديًّا مرتفعًا للدول الأوروبية، وهذا يوضح أنه بالرغم من عدم وضوح الأهداف، إلا أن العصبية كانت السبب الرئيس في إقامة هذه الحضارة المادية البحتة[١].

ب. تماسك العصبة ووحدة هدفها

يشير ابن خلدون إلى أن تماسك العصبة ووحدة أهدافها من أهم عوامل قيام الحضارات، وعند مقارنة الحضارات جميعها في قيامها ونشأتها نلاحظ أنها جميعها قامت على أساس المصلحة العامة، أي تحقيق الأهداف العامة وليست الشخصية[٢]، فالعصبية تخدم المجموعة، فالولاء في المجتمع العصبي ليس لشخص أو لمبدأ، إنما هو ولاء للمصلحة العامة المشتركة التي يرى فيها كل شخص مصلحته الخاصة[٣].

ج. عدم وجود حواجز بين الحاكم والرعية

أشار ابن خلدون إلى أن عدم وجود حواجز بين الحاكم والرعية ومعرفته بكل صغيرة وكبيرة في الدولة، والعدالة والمساهمة في حل مشكلات الرعية من العوامل التي تسهم في ازدهار الحضارة وانتشارها واستمرار الدولة وبقائها[٤]. ويتفق توجه ابن خلدون مع الأسباب السياسية لقيام الحضارات السابقة جميعها، فقد كانت عدالة (يوليوس قيصر) مع شعبه وحب الشعب له نتيجة تلمسه مشكلاتهم بنفسه من أهم ركائز قيام الحضارة الرومانية، وكذلك كانت عدالة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين

---

(١) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٤-٣٢)؛ مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أميركا**، (ص٥٥-٦٢).

(٢) طعمة: **في أصول العمران والتلاقح الاجتماعي**، (ص١٥٥).

(٣) الحبابي: **الديناميكية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص٩٧).

(٤) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٤).

الذين درسوا مشكلات المسلمين وغير المسلمين داخل الدولة الإسلامية ووضعوا حلولًا ناجعة لها، وبصفة خاصة عمر بن الخطاب ﷺ التي لم تقتصر جهوده على خدمة شعبه من معاصريه، ولكنه وضع الأساس لخدمة المسلمين في المستقبل حين رفض تقسيم الأراضي المفتوحة وجعلها في بيت المال رصيدًا للمسلمين وأبنائهم في المستقبل وهي من أهم أسباب انتشار الحضارة الإسلامية[١].

د. قلة القبائل والعصائب الموجودة بالدولة

يرى ابن خلدون أن قلة القبائل التي تقطن الدولة وكذلك قلة العصائب يمنح الأسرة الحاكمة قدرة أكبر على الحكم والسيطرة والتحكم في هذه القبائل[٢]. ويتفق توجه ابن خلدون مع الأسباب السياسية لقيام الحضارات السابقة جميعها، فقد تميز قيام هذه الحضارات جميعها بسيطرة عصبة واحدة على مقاليد الحكم، ما مهد لقلة الآراء المعارضة والتوجهات الرافضة، ومن ثم مكن من تنظيم شؤون الدولة وإنشاء الحضارة.

ويرى الباحث أن الأسباب السياسية لقيام الحضارات عند ابن خلدون وإن كانت تأخذ الصبغة الإسلامية البحتة، إلا أن الحضارات جميعها قامت على مرتكزات العصبية والدولة التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته، فهذه العصبية هي التي مكنت من إنشاء الدول وازدهار حضارتها.

تحليل ومقارنة الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات

يتضمن هذا الجزء الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات عند ابن خلدون مع تحليلها ومقارنتها مع الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات المختلفة في ضوء منهج ابن خلدون عن قيام الحضارات.

---

(١) العش: **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان**، (ص٢٤-٢٧).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٠).

أ. الولاء للسلطة الحاكمة

لا يقتصر الولاء للسلطة الحاكمة عند ابن خلدون على ولاء الأهل والأقارب أو العائلة الحاكمة فحسب، ولكن أيضًا على ولاء أفراد الشعب[١].

وعند مقارنة ذلك مع الحضارات المختلفة يتضح أنها جميعها اتفقت مع فكرة ابن خلدون في الولاء للسلطة الحاكمة كما هو موضح في ما يأتي:

أ. في الحضارة السومرية كان الولاء للحاكم وكهنة المعبد والنبلاء من أهم العوامل التي أسهمت في منع النزاع والشقاق الاجتماعي، ومن ثم أسهمت في قيام الحضارة السومرية وانتشارها وازدهارها[٢].

ب. في الحضارة البابلية كان ولاء العائلة الحاكمة وكذلك أفراد الشعب لـ (حمورابي) وسيلته للانتصار في المعارك وتوحيد الجنوب، فلم تشتعل ضده الثورات حتى في حالات الأزمات، ما ساعده على نشر حضارة بابل القديمة[٣].

ج. في الحضارة الإغريقية، سواء في عهد الملوك، أو عهد النبلاء، أو عهد الطغاة، أو عهد الديموقراطية، أسهم الولاء الاجتماعي وطاعة الملوك والنبلاء والطغاة والديموقراطيين في توطيد أركان الحكم ونشر الحضارة الإغريقية[٤].

د. في الحضارة الصينية حظي الإمبراطور (شي هوانج-تي) بولاء كبير سواء من مناصريه أو من أفراد شعبه، ما ساعده بصورة كبيرة على توحيد الصين، وتحقيق الأمن والاستقرار الذي أسهم في انتشار الحضارة الصينية وذياع صيتها[٥].

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٦-٨٧).

(٣) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٨٨-١٩٢).

(٤) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٨-٥١٢).

(٥) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٢٠).

هـ. فـي الحضـارة الفرعونية عمد ملـوك الفراعنة إلى الحصول علـى ولاء الكهنة عـن طريق الأعطيـات الجزيلة من الأموال والأراضـي، بينما حرصوا على ولاء أفـراد الشـعب عـن طريـق إيهامهـم بخرافة الملـك الإله ظل الله فـي الأرض، فقد كان الولاء وسـيلة السـيطرة على الحكم وإخضاع الآخرين، ما أسـفر عن حضارة عظيمة انتشرت في ربوع العالم القديم[١].

و. فـي الحضـارة الفينيقية حرص الملـوك على الحصول علـى ولاء الكهنة وكبار الموظفيـن، ومنحوهم الإقطاعات الضخمة وسـيلة لضمان ولائهم وانحيازهم لهم، وتسخيرهم في خدمة أغراضهم التي تحمل أعباءها الفقراء والعبيد كقوة منتجة مستغلة لا تتمتع بأية امتيازات أو حقوق وترهق تحت وطأة الواجبات، ما أسهم -بشدة- في تحقيق وفورات أسهمت في انتشار الحضارة الإغريقية[٢].

ز. فـي الحضـارة الرومانيـة حرص الملـوك جميعهـم وكذلـك مجالس الشـيوخ ومجالـس العامـة علـى ضمـان ولاء النبـلاء وولاء الفرسـان، إلا أن (يوليوس قيصر) حرص على ولاء جيشـه الخاص به الذي كونه، وضم إليه ولاء العامة، فأسهم بصورة كبيرة في انتشار الحضارة الرومانية وسيطرتها على العالم[٣].

ح. تميـزت الحضـارة الإسـلامية عـن بقيـة الحضـارات فـي أن الـولاء كان للدين الإسـلامي، أي للدعوة الإسـلامية ومبادئها ومرتكزاتها وثوابتها، وهو ما جعل البدو يسقطون حضارة روما وحضارة فارس ويستولون على تراثها[٤].

ط. أمـا الحضـارة الغربيـة (الأوروبيـة والأمريكيـة) فقـد كان فيهـا الـولاء للعمـل والمصنـع والمنظمـة والوحـدة الإنتاجية، حيث أسـهمت الثـورة الصناعية في

---

(١) لالويت: **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، (ج١-ص٢٩٣).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢١٧-٢٢٢).

(٣) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٦-٦٦٨).

(٤) الذوادي: **أضواء على مفهوم الطبيعة البشرية في الفكر الخلدوني: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص١١٠-١١١).

تغيير الولاء إلى ولاء مادي بحت، وأصبح العاملون في المصانع والمناجم يعدون بمثابة آلات أو أدوات تشحن عن طريق الحوافز المادية للحصول على أكبر كم من الإنتاجية بغض النظر عن العلاقات الإنسانية[١].

ب. بطء ظاهرة الحراك الاجتماعي

يشير ابن خلدون إلى أن بطء ظاهرة الحراك الاجتماعي من أسباب استقرار الحضارة ونمائها وتطورها، ولذلك فقد كان بطء ظاهرة الحراك الاجتماعي من عوامل استقرار الأمن في الحضارات جميعها التي تكونت من طبقات مختلفة (نبلاء، وكهنة، وكبار موظفين، وعبيد، وعامة)، وكان الصراع يثور فيها بين الطبقات بين الحين والآخر، ولكن كان يخمد بالقوة العسكرية وبالعنف، وتميزت الحضارة الإسلامية بالرغم من وجود طبقة العبيد في بداية الحضارة الإسلامية بسعيها لإلغاء الفوارق بين الطبقات، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى معيارًا لتحديد الأفضلية، بل شجع الإسلام على تحرير العبيد من الرق، وجعل العبودية والخضوع لله وحده، وأن الدنيا ما هي إلا دار اختبار وابتلاء، وشجع المسلمين على الشهادة لدخول الجنة، هذه العوامل كلها ألغت ظاهرة الحراك الاجتماعي، وأسهمت إلى حد كبير في انتشار الحضارة الإسلامية وازدهارها بصورة غير مسبوقة على بقية الحضارات[٢].

ج. الحتمية الطبيعية (الحاجة إلى وجود حاكم)

يرى ابن خلدون أن الملك حتمية طبيعية مثل لواء يجتمع الناس تحت قيادته، وأن التشرذم والاختلاف وسيلة من وسائل إضعاف الملك وإحداث الفوضى التي تبدد

---

(١) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٤-٣٢)؛ مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أميركا**، (ص٥٥-٦٢).

(٢) لوبون: **حضارة العرب**، (ص١٣٤).

الأمن والاستقرار[١]، وبالرغم من وجود الحكام في الحضارات جميعها واتسام بعضهم بالعدالة، إلا أنهم استبدوا بالحكم وادعوا الديموقراطية، وتحكموا في مصير الشعوب، وليس أدل على ذلك من اغتيال أعضاء مجلس الشيوخ (يوليوس قيصر) منشئ الحضارة الرومانية وأعدل حكامها؛ بسبب سيطرته على الحكم، فقد كان مجلس الشيوخ يحاول إعادة النظام الجمهوري السابق لكي يكتسب أعضاؤه صلاحيات حقيقية، ولم يرض بحكم (قيصر) وتحكمه في مقاليد الحكم كافة، فاغتيل (قيصر) عام (٤٤م) في قاعة مجلس الشيوخ[٢]. ولذلك تميز النظام الإسلامي بالشورى، وحضت آيات قرآنية كثيرة على الشوري كوسيلة لتثبيت دعائم الحكم وعدم انفراد القائد بالحكم، فقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في كل كبيرة وصغيرة مما لم ينزل به نص في القرآن الكريم أو السنة النبوية، ويحرص على العدل بإعطاء كل ذي حق حقه من دون نقص أو تعدٍّ، والإنصاف في المعاملة من غير إفراط ولا تفريط، والمساواة عن طريق عدم التفرقة بين الناس في الحقوق والواجبات على أساس عرقي أو قبلي أو إقليمي أو طبقي أو اقتصادي، والحرية عن طريق الإذن للإنسان بالتصرف في شؤونه كلها بما لا يخالف الشريعة الإسلامية، وبما لا يوقع الضرر على الآخرين من أفراد المجتمع[٣].

د. التمسك بعادات العامة وتقاليدهم

يرى ابن خلدون أن الاستقرار الاجتماعي اللازم لتحقيق أمن الدولة وما ينتج عنه من حضارة لا يتحقق إلا باستمرار العامة على العادات والتقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم[٤].

---

(١) الساعاتي: **ابن خلدون مبدعًا: قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع**، (ص١٨٨).

(٢) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٦-٦٦٨).

(٣) آل سعود، سعود بن سلمان وآخرون: **النظام السياسي في الإسلام**، مدار الوطن للنشر، الرياض، ٢٠١١م، (ص١٣٤-١٥٧).

(٤) الوردي، علي: **منطق ابن خلدون**، شركة دار الوراق، بيروت، ط٣، ٢٠١٣م، (ص٢٣٤-٢٣٥).

وتتفق الحضارات جميعها في التمسك بعادات العامة وتقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وسيلة للحصول على دعم العامة وتأييدهم، حتى في الإسلام فسمات العربي التي ترتكز على الشجاعة والإقدام، ونصرة الجار، والشهامة، والمروءة، وغيرها من الصفات العربية الأصلية رسخها الإسلام وأمر بها، والاستثناء فقط أن الإسلام حارب العادات السلبية، مثل وأد البنات، وشرب الخمر، والزنا، وإغارة القبائل على بعضها بعضًا للحصول على الغنائم، وكذلك حارب الأصنام، ودعا إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، فقد رسخ الإسلام العادات الإيجابية وألغى العادات السلبية وحاربها.

تحليل ومقارنة الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات

يتضمن هذا الجزء الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات عند ابن خلدون مع تحليلها ومقارنتها مع الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات المختلفة في ضوء منهج ابن خلدون عن قيام الحضارات.

أ. تسخير العامة

يشير ابن خلدون إلى أن تسخير العامة للقيام بالأعمال والمهام الخاصة بالحكام وأعوانهم توفر الأموال اللازمة للتنمية، ولكن يشترط أن يكون هذا التسخير لصالح المجموعة، لا لصالح فئة معينة؛ لأن التسخير لصالح فئة يجلب الحقد في نفوس العامة ويكون من أدعى المفاسد المدمرة للحضارة والعمران[١].

وعند مقارنة ذلك مع الحضارات المختلفة يتضح أنها جميعها -باستثناء الحضارة الإسلامية- اتفقت مع فكرة ابن خلدون في تسخير العامة كما هو موضح في ما يأتي:

أ. في الحضارة السومرية سخر العبيد في العمل في المزارع الضخمة التي كانت تملكها العائلات الكبيرة، وكذلك في العمل في المعابد التي خصصت لها

---

(١) الساعاتي: **ابن خلدون مبدعًا: قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع**، (ص١٩٠).

أراضٍ زراعية وكانت تضمن مزارعين غالبيتهم من العبيد ونسبة قليلة من الأحرار يزرعون لحساب المعبد في مقابل جزء من المحصول أو الحصول على منتجات أخرى، كما كان كبار كهنة المعبد والقسيسين يتمتعون بأراض ضخمة يعمل بها العبيد من دون مقابل أو الأحرار مقابل أجر[١].

ب. في الحضارة البابلية تحققت النهضة البابلية الثانية في عهد (نبوخذ نصر) الذي اهتم بالتخطيط العمراني والتجارة والزراعة واستثمار نهر الفرات، وكان العبيد يعملون في الزراعة والتجارة والصناعة، وكان يؤجرون للعمل لدى الغير[٢].

ج. في الحضارة الإغريقية وفي عهد الملوك، كان العبيد (طبقة المعاتيق أو طبقة عبيد الاتكا) المسؤولين عن النمو الزراعي والتجاري، بصفتهم قوة عمل مجانية، وبعد سقوط عهد الملوك وظهور عهد النبلاء استمر الحال على ما هو عليه، وزاد استخدام العبيد في الأغراض الاقتصادية[٣].

د. في الحضارة الصينية استغلت طبقة الفلاحين للعمل في خدمة النبلاء والإقامة في الأرض الزراعية الخاصة بهم، وكان إنتاج هذه الأراضي المملوكة للنبلاء تدر على الفلاحين ما يكفيهم وما يكفي سادتهم المقاتلين من النبلاء[٤].

هـ. في الحضارة الفرعونية استفيد من طبقة الفلاحين في العمل في أراضي الملك أو المعابد، وكانوا يزرعون الأرض التي يسمح لهم بالعيش فيها والاستفادة من جزء من إنتاجها فقط كأجر، وكذلك طبقة العمال الذين استخدمتهم الدولة

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٧).

(٢) السحمراني: **الحضارة البابلية** _ **موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٨٣-٨٤).

(٣) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية)** _ **موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٦-٥٠٧).

(٤) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٩٠).

وكانت أجورهم تدفع على صورة تعيينات يصرفها الفرعون بوساطة الوزير وتشمل حبوبًا وأسماكًا وخضرًا وزيتًا وأقمشة، وكذلك طبقة الخدم، وكانوا يعملون من دون مقابل في بيوت طبقة النبلاء ومزارعهم، وكان غالبيتهم من أسرى الحروب ومن النوبيين(١).

و. في الحضارة الفينيقية اعتمد الفينيقيون بصفة عامة في تطورهم على التجارة والتبادل التجاري مع الأمم المجاورة من خلال أساطيلهم التي تميزوا بها، واستخدموا طبقة العبيد قوة عاملة مجانية في مجالات النشاط الاقتصادي كافة(٢).

ز. في الحضارة الرومانية سواء في مرحلة النظام الملكي، أو مرحلة النظام الجمهوري، أو مرحلة النظام الإمبراطوري، حُول الأسرى إلى عبيد لاستخدامهم طاقة إنتاجية مجانية، ولكن تميز الحكم الروماني بمنح العبد حق العمل وتوفير نفقات شراء حريته(٣).

ح. أما الحضارة الإسلامية فقد سعت لتحرير العبيد، ووضعت كفارة اليمين أحيانًا عن طريق إعتاق رقبة(٤)، ولم تكلف العبيد فوق طاقتهم، ووضعت الأسباب التي تهيئ الفرصة لتحريرهم(٥).

---

(١) مامو: **الحضارة المصرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣٩٥-٣٩٦).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢١٦-٢٢٦).

(٣) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٦-٦٦٨).

(٤) المكاتبة المذكورة في الآية: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

(٥) الذوادي: **أضواء على مفهوم الطبيعة البشرية في الفكر الخلدوني: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص١١٠-١١١).

ط. أمـا الحضـارة الغربية (الأوروبيـة والأمريكيـة) فقيامها على النزعـة المادية البحتة جعل المال هو سـيد الجميع، وجعل العاملين جميعهم عبيدًا لدى المال أو من يملكه، حيث شـهدت الثورة الصناعية انتهاكات جسـيمة بحق العاملين، وشغل الأطفال وصغار السن والنساء دون رحمة اعتمادًا على معيار الإنتاجية، ولـم يحدّ من هذه الممارسـات إلا بعد ازدياد قوة حركـة النقابات العمالية في بداية القرن العشرين[١].

ب. الخشونة

تسـهم الخشـونة في زيادة القدرة على تحقيق الانتصارات في المعارك، وذلك في حـال عـدم الوصـول إلى رفاهية الحضارة المفسـدة للعمران التي تتضمـن الركون للدعة والراحـة، لذلـك كانت الخشـونة والاقتصاد في النفقـات من أهم العوامل التي سـاعدت علـى اسـتيلاء الحضارات على الحضارات التي سـبقتها وتشـييد حضـارة جديدة عليها، ولذلـك حققت إسـبرطة حضارتها حين قامت كدولة عسـكرية منـذ بداية تاريخها، حيث اهتمـت بقـوة جسـم الرجل والمـرأة ودربتهـم على القتـال باسـتمرار؛ في إطـار العقيدة العسـكرية للقائد الإسـبرطي (ليقورغ) التي ارتكزت عليها فلسـفة الحياة في إسـبرطة، فكانـت عقيدتهـم القتال حتى آخر جندي، وكان الجندي الإسـبرطي يفضل الانتحار على العيش بعد الهزيمة[٢]، وحقق المسلمون انتصاراتهم على أكبر إمبراطوريتين في العالم نتيجة خشونة المسلمين واكتسابهم عصبية البداوة بجانب عصبية الدين التي أكسبتهم صلابة مكنتهم من غزو الدنيا ونشر حضاراتهم عبرها.

---

(١) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٤-٣٢)؛ مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أميركا**، (ص٥٥-٦٢).

(٢) ديورانت: **قصة الحضارة: الشرق الأقصى (اليابان) حياة اليونان**، (مج٣-ج٦-ص١٤٨-١٥٠).

ج. اتساع أقاليم الدولة

ازدهرت الحضارات جميعها نتيجة اتساع أقاليمها، لأن ذلك ترتب عليه تنوع المناخ والتضاريس والتربة، ومن ثم تنوع المحاصيل الزراعية، والموارد المعدنية، ومصادر المياه، وطرق التجارة البحرية والنهرية، فاتساع أقاليم الدولة من عوامل انتشار حضارتها ونشر هيمنتها ونفوذها على ما سواها من الحضارات، وهناك العديد من الأمثلة، فالحضارة اليونانية والرومانية تميزت بسيطرتها على بقاع كثيرة من العالم نتيجة تحولهما نحو التبادل التجاري البحري وإنشاء المستعمرات، وورثتهما الحضارة الإسلامية بعد الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب والشمال والجنوب، حيث أدى اتساع أقاليم الدولة إلى إنشاء الدواوين لتسيير أمور الدولة الإسلامية، وكانت هذه الدواوين التي أنشئت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ تعبيرًا حيًّا عما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من نمو ورخاء وانتشار[١].

د. الثراء

يرى ابن خلدون أن الثراء من أهم أسباب قيام الحضارات لأنه يوفر الأموال اللازمة للبناء والتشييد ولكن بشرط عدم الإضرار بحقوق العامة أو الاعتداء على أموالهم وأملاكهم، وعدم الوصول إلى مرحلة الحضارة المفسدة للعمران[٢]، فالثراء من أهم عوامل تكوين الحضارات، حيث يسهم في رقة الحضارة عن طريق معالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها، والتفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله[٣].

---

(١) النمر: **الإدارة العامة: الأسس والوظائف والاتجاهات الحديثة**، (ص٢٠٤-٢٠٥).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٢).

(٣) الدوري: **ابن خلدون والعرب: مفهوم الأمة العربية: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص١٥٩).

obeikan.com

وقد كان الثراء من أهم سمات الحضارات الزاهرة، مثلًا؛ الثراء الذي وصلت إليه الحضارة السومرية والبابلية والإغريقية والرومانية والإسلامية والغربية تجلت آثاره في الكثير من المعالم والشواهد الحضارية التي ما يزال بعضها باقيًا حتى إعداد هذه الرسالة، مثل المعابد اليونانية القديم، والمعابد الرومانية، وأهرامات الجيزة بمصر وغيرها من الآثار التي تعبر عما وصلت إليه الحضارات من رقي وثراء.

تحليل ومقارنة أسباب سقوط الحضارات

يتضمن هذا الجزء استعراض أسباب سقوط الحضارات المختلفة مع مقارنتها بما ذكره ابن خلدون من أسباب لسقوط الحضارات، بهدف للتعرف عن قرب إلى مدى التطابق والاختلاف بين أسباب سقوط الحضارات عند ابن خلدون مع أسباب سقوط الحضارات القديمة والحديثة على حد سواء.

تحليل ومقارنة الأسباب السياسية لسقوط الحضارات

يتضمن هذا الجزء الأسباب السياسية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون مع تحليلها ومقارنتها مع الأسباب السياسية لسقوط الحضارات المختلفة في ضوء منهج ابن خلدون عن سقوط الحضارات.

أ. فساد العصبية

يرى ابن خلدون أن صراع المصالح الخاصة يؤدي إلى فساد العصبية، أي تفكك اللحام الذي جعل من أفراد العصبية الثائرة المسؤولة عن الحكم وحدة متجانسة يطغى فيها (الأنا الجمعي) ويسيطر فيها (الأنا العصبي) على (الأنا الشخصي). فحين تفسد هذه العصبية بسبب دخولها في سباق الجاه المقيد للمال تبدأ الحضارة في السقوط والانهيار[١].

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥).

وعند مقارنة ذلك مع الحضارات المختلفة يتضح أنها جميعها اتفقت مع فكرة ابن خلدون في أن فساد العصبية من أهم أسباب زوال الحضارة وانهيارها كما هو موضح في ما يأتي:

أ. في الحضارة السومرية أدت الرغبة الجامحة لدى حاكم كل بلدة في الحصول على لقب (لوكال) عن طريق ضم البلدان المجاورة إلى معارك حامية الوطيس، انقسمت فيها شعوب البلدان حسب عصبيتها وولائها لكل حاكم إلى فرق متصارعة، وترتب عليها خسائر كبيرة في الأرواح، فقد كان ضحايا الحروب خيرة المحاربين من شباب الجماعات، كما كان السومريون يدفعون ثمن تلك الحروب باهظًا، وبصفة خاصة حين نشبت الحروب بين الدول السومرية المتجاورة بسبب المياه، وعند قيام (لوغلزغيري) باحتلال غالبية دول سومر لتوحيدها وما ترتب على ذلك من خسائر في الأرواح والأموال، وخلال الاضطرابات الداخلية التي عانت منها المدن السومرية حتى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وكذلك أثناء استيلاء (سرجون) على إمبراطورية (لوغالزغيري) في حروب طويلة مدمرة[1].

ب. في الحضارة البابلية أدى تفرق العصبيات إلى صراع دموي استمر مئة عام لإخضاع الإمارات العمورية لحكم بابل والذي لم يتحقق إلا في عصر (حمورابي) الذي تمكن من ضم المدن السومرية تحت حكم بابل بجانب ضم مملكة أشور. كما أن ضعف العصبيات أسهم في انهيار إمبراطورية بابل في عهد آخر ملكين من الأسرة البابلية الأولى نتيجة مهاجمتها من قبل أربعة أعداء تباعًا: ساميو المناطق البحرية، وعيلاميو زاغروس، والحثيون من الشمال، ومربو الخيول الكاسيت الذين استوطنوا شمال عيلام. واحتلت القبائل البحرية جنوب الإمبراطورية البابلية، بينما احتل الكاسيت وسط بابل

(١) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٦-٢٥٠).

وشمالها، وخلال المدة الأولى من احتلال الكاسيت لبابل عانت البلاد من دمار رهيب وكساد اقتصادي شديد[١].

ج. في الحضارة الإغريقية أسهم فساد العصبية ورغبة كل حاكم في الاستقلال بأمور الحكم إلى حروب داخلية مدمرة (حروب البيولوبونيز)، أسفرت عن سقوط أثينا وسيطرة إسبرطة على المدن اليونانية كافة، وما لبثت أن لقيت هزيمة من طيبة التي ورثتها في السيطرة على بلاد الإغريق، وهكذا قضت الدول الكبرى الثلاث (أثينا، وإسبرطة، وطيبة) على بعضها بعضًا، وأخفقت في تحقيق الوحدة السياسية بسبب فساد العصبية، ما جعلهم فريسة سهلة لمقدونيا التي استطاع ملكها (فيليب) والد الإسكندر الأكبر أن يقضي على الجيش اليوناني عام (٣٣٨ ق.م)، واعترفت به الإغريق إلا إسبرطة التي أخضعت بالقوة، وأكمل عمله ابنه (الإسكندر الأكبر) الذي انتخب قائدًا للإغريق جميعهم[٢].

د. في الحضارة الصينية وزعت السلطة على قرابة تسعين أميرًا منذ عهد أسرة (تشو)، ونمت رغبة كل منهم في الانفراد بالسلطة لكي يحصل على لقب إمبراطور، وترتب على ذلك حركات انفصالية لبعض الولايات، وإعلان بعضهم نفسه أميرًا على المنطقة التي يسيطر عليها ويكثر بها أتباعه، حتى وصل عدد الأمراء الذين تنافسوا على السلطة أكثر من ثلاث مئة أمير، وقامت بينهم الحروب المدمرة التي ترتب عليها خسائر مادية وبشرية فادحة، وتدمير التجارة والزراعة والاقتصاد بصفة عامة نتيجة الانشغال بالحروب والنزاع على السلطة[٣].

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٩٦-١٠٦).

(٢) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٥٩١-٦٠٢).

(٣) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٨٩).

هـ. في الحضارة الفرعونية كانت الصراعات على الحكم وتفرق العصبيات ما بين الشمال والجنوب من أهم أسباب انهيار الحضارة الفرعونية، فقد أسفر الصراع بين الشمال والجنوب عن انتصار (نارمير) ملك مصر العليا (جنوب مصر) على ملك مصر السفلى (شمال مصر)، وأسر ستة آلاف مقاتل، مع إبادة تمرد في شمال مصر إبان حكم الأسرة الأولى، وكذلك إبادة عصيان مدني في عهد الأسرة الثانية كلف خمسين ألف قتيل. وبعد موت (امنمحت الثالث) آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشرة، نشبت الاضطرابات، وعاشت البلاد مدة من التمرد والحروب الداخلية استمرت ثمانين عامًا. كما أدى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لأرستقراطيات النومات وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد بعد أن أنهكتها الحروب الداخلية والخارجية الطويلة والتي أسفرت عن سقوط مصر في يدي (الإسكندر المقدوني) في عام (٣٣٢ ق.م)[١].

و. في الحضارة الفينيقية لم تكن هناك أصلًا لحمة سياسية، بل كان الهدف من العصبية السائدة هو الرواج التجاري، ولذلك لم توحد المدن الفينيقية تحت قيادة دولة واحدة، ما أدى إلى وجود التنافس المستمر والصراع بينها في ضوء وجود عدة عصبيات تسببت في إضعافها داخليًا، وأسهم في إضعافها خارجيًا. كما أسفرت الحروب المستمرة بينهم وبين الإغريق عن سقوط طروادة وشواطئ آسيا الصغرى بيد الإغريق، وخسارة الفينيقيين في هذه الحروب لقرابة ثلاث مئة مستعمرة، ولم يتبق لهم سوى مئة مستعمرة في شمال إفريقيا وأسبانيا، إضافة إلى أن النزاع على الحكم بين ابن وابنة (منان) ملك صور، أسفر عن تفتيت قواهما بسبب الصراعات الداخلية والاضطرابات بين مؤيدي الفريقين، واستمرت الحروب الداخلية والخارجية

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٢١-١٥٤).

التي أسفرت عن استسلام المدن الفينيقية لـ (لإسكندر المقدوني) من دون قتال عام (٣٣٣ ق.م)، باستثناء مدينة صور التي فضلت أن تبقى على الحياد، فهاجمهم (الإسكندر)، وحاصر جزيرتهم، ودمرها، وقتل وأسر غالبية سكانها[١].

ز. في الحضارة الرومانية أدى نمو الرغبة الاستبدادية والتوسعية في نفوس الحكام الرومانيين الذين أصبح غاية همهم سلب خيرات الأقاليم التابعة للدولة الرومانية إلى تفرق كلمتهم وتمزيق عصبياتهم[٢]. كما أدى فساد العصبية إلى الصراع على السلطة والنفوذ بين مجلس الشيوخ والإمبراطور من جهة، وبين مجلس الشيوخ ومجلس العامة من جهة أخرى، إضافة إلى الصراعات بين القادة التي أدت إلى وقوع الاضطرابات في روما، والثورات التي قام بها حلفاء روما الإيطاليون وثورة العبيد الشهيرة بقيادة (سبارتاكوس)، وكذلك الحرب التي اندلعت في آسيا الصغرى. كما أسهم سلطان البابوات الزمني وسعيهم لزيادة سلطاتهم وتدبيرهم للكثير من المكائد والثورات ضد حكام البلدان الرومانية الذين وقفوا حائلًا بينهم وبين الحصول على السلطة في ضعف وتفتيت الحضارة الرومانية، بالإضافة إلى ظهور الإسلام وقضائه على الإمبراطورية الرومانية قضاء مبرمًا[٣].

ح. وفي الحضارة الإسلامية كان فساد العصبية أيضًا من أهم أسباب زوالها وانتهائها بعد سيطرتها وهيمنتها على العالم، بسبب الصراع على السلطة والنفوذ بين الدول المتعاقبة، وإشعال الثورات لإسقاط خلافة وإقامة أخرى، حيث أشعلت ثورة في خراسان لإسقاط الدولة الأموية، وإنشاء الدولة العباسية، وتكريس عملية الانفصالات عن الخلافة العثمانية. كما أن إبعاد العباسيين

---

(١) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢١٦-٢٢٦).

(٢) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٤).

(٣) إسماعيل وأحمد: **تاريخ بلاد الشام القديم**، (ص٣٢-٣٥).

العـربَ عن المراكـز القيادية وتكليف الأتراك السـلجوقيين بها زاد من ضعف العصبيات، فقد أحلوا تعصبهم محل تسامح العرب، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوروبا وثارت، وبدأت مرحلة الحروب الصليبية التي استنزفت قوى الدولة الإسلامية وأسهمت في تفككها. وظهـر التتار خـلال الحـروب الصليبية واسـتولوا على بغداد عـام (١٢٥٨م)، وقتلوا الخليفة العباسـي المسـتعصم بالله، ونهبوا بغداد بعد أن قتلوا أكثر من مليـون مسـلم مـن بينهم النسـاء والأطفال والشيـوخ بعد التآمـر على الخلافة العباسية من قبل الوزير الأول مؤيد الدين بن العلقمي الشيعي الرافضي الذي يسـر مهمة دخول الجيوش التترية إلى بغداد، وغرر بالخليفة العباسـي وضلله بإقناعه بتسريح الجيش العباسي وتقليل عدده من مئة ألف إلى عشرة آلاف. بل إن قلة خبرة الخليفة العباسي المستعصم بالله وعدم إدراكه لأهمية العصبية فـي توطيـد أركان ملكـه جعلته يرسـل الوزير الفاسـد مؤيـد الدين بن العلقمي الشـيعي الرافضـي، و(متيكا) بطريرك بغداد النصرانـي لمفاوضة التتار بعد محاصرتهم بغداد. كما أسهمت الحرب العالمية الأولى والثانية في القضاء على الدولة العثمانية ووزعت أملاكها، وأسـفرت عن احتلال الدول الأوروبية الدولَ العربية عسكريًّا[1].

ط. أما الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية) فلا توجد عصبية تجمعها، بل إن غالبية الدول الأوروبية تتكون من أكثر من قومية واحدة، ولا يجمع بينها سـوى المصالح المشـتركة، وترتكز في الغالب على اسـتخدام القوة لفرض هيمنتها وسيطرتها على المناطق التي تكفل تحقيق مصالحها الاقتصادية، وهذا أوجد -بالطبع- ضعفًا في الروابط بين هذه الدول، بغض النظر عن إنشـاء الاتحاد الأوروبـي لقيـام أوروبـا الموحـدة، حيـث أظهرت الأزمـة الماليـة العالمية عام

(١) الحسن: **الدولة العباسية تكامل البناء الحضاري**، (ص٤٢٢-٤٢٥)؛ أبو زيدون: **تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط**، (ص٣٣١-٣٣٨).

(٢٠٠٧م) التأثير الكبير للجانب الاقتصادي على سياسات هذه الدول التي راحت تبحث عن مخرج، واتجهت للنظام المصرفي الإسلامي كحل[١]. إلا أن اللجوء للقوة لا يضمن تحقيق المصالح ولا يقي من ردود الأفعال الانتقامية، بل ويكرس الدعوات الانفصالية التي اجتاحت أوروبا، مثل انفصال تشيكوسلوفاكيا إلى سلوفاكيا وجمهورية التشيك، والحربين العالميتين الأولى والثانية التي كبدت دول أوروبا والولايات المتحدة خسائر باهظة، فضلًا عن الحرب على الإرهاب والسياسات غير المتوازنة للدول الأوروبية والولايات المتحدة كعوامل سياسية تنذر بضعف الحضارة الغربية نتيجة تعرضها للإرهاب المحتمل في ظل غياب العدالة وتهميش دور المنظمات الدولية، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالسيطرة على العالم، وسعيها لفرض ما يخدم مصالحها ومصالح إسرائيل غير عابئة بالمنظمات الدولية كمجلس الأمن والأمم المتحدة[٢].

ب. البطش بالعامة لإخضاعهم

يرى ابن خلدون أن اتباع سياسات الشدة واستخدام القسوة والبطش والتنكيل بالعامة من أجل إخضاعهم يفضي في النهاية إلى السقوط المريع للحضارة والدولة[٣].

وقد كان مآل الحضارات جميعها التي سعت للبطش بالعامة لإخضاعهم الزوال والأفول، وكان من أبرز الحضارات التي شهدت أفولًا نتيجة البطش بالعامة الحضارة السومرية، فبالرغم من الثورة الاجتماعية الإصلاحية التي قادها (أوركاجينا)

---

(١) محمود: **دور الاقتصاد الإسلامي في علاج المشكلات الاقتصادية التي عجزت النظم الوضعية عن علاجها**، (ص٨-١٢).

(٢) السحمراني: **ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة**، (ص٨).

(٣) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٤).

لنشر الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، إلا أن مساعيه أحبطت بعد هزيمته أمام (لوغلزغيري) الذي أعاد الأمور إلى ما كانت عليه، واستمرت الأوضاع في التردي نتيجة استيلاء النبلاء والحكام على المشاعات، ومعاناة الشعوب والمحكومين من العمل سخرة وتعرضهم للبطش والتنكيل عند المطالبة بحقوقهم[١]، وكذلك الحال في مصر الفرعونية حيث أبيد تمرد في شمال مصر إبان حكم الأسرة الأولى، كما أبيد عصيان مدني في عهد الأسرة الثانية كلف خمسين ألف قتيل، والغضب الشعبي العارم والاضطرابات الشعبية الناتجة عن إساءة استغلال موارد البلاد ووضعها في أيدي النبلاء وكهنة المعابد، ما كلف بحملات إبادة واسعة للفقراء بمؤازرة سرايا المحاربين التابعين للملك[٢].

كما كانت أساليب القسوة والبطش والتنكيل التي اتبعها بعض الولاة والأمراء والخلفاء المسلمين مع معارضيهم، من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية نتيجة حصول فجوة واسعة بينهم وبين عامة الناس، أسهمت هذه الفجوة في إقامة الحواجز بين الحكام والرعية، وأفضت إلى السقوط المريع لبعض الخلافات الإسلامية سواء الخلافة الإسلامية الأموية، أو العباسية، أو الخلافة الإسلامية في الأندلس[٣].

ج. انقسام الدولة

يقول ابن خلدون: «إن أول ما يقع من آثار الهرم في الدول انقسامها»[٤].

ويعد الانقسام بداية انهيار الدولة والحضارة فقد تعرضت الحضارات جميعها التي زالت إلى الانقسام الذي أضعفها وجعلها مطمعًا للدول المجاورة لها، فقد كان الانقسام

---

(١) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٩٦).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٥٢-١٥٤).

(٣) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٢-٣٢٦).

(٤) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص٢٧٣).

مـن أهـم أسـباب زوال الحضـارة الصينية، حين اشـتعل الصـراع بين أهـل القصر على السـلطة فـي عهد أسـرة (هـان) منذ عـام (١٨٤م) حتى عـام (٢٢٠م)، ومـا ترتب على ذلك من انقسـام الصين إلى ثلاث ولايات وممالك هي: (وي) و(وو)، و(شـو)، واسـتمر هذا الانقسـام مدة سـتين عامًا، ثم تحول إلى انقسـام ثنائي لتتكون الصين من مملكتين هما: المملكة الشـمالية، والمملكة الجنوبية، واسـتمر هذا الانقسـام مدة مئتين وسـبعين عامًا[١].

وكذلك كان تقسـيم ممتلكات الحضارة الرومانية من أهم أسباب ضعفها ونهايتها، ففـي عـام (٢٨٤ ق.م) قـام الإمبراطـور (ديـو كليشـيان) بتقسـيم الإمبراطوريـة إلـى وحـدات أصغـر بغيـة إعادة النظـام، بحيث يصبح لـكل وحدة حكومتها وجيشـها الخاص بهـا. وقـام بتعييـن جنـدي يدعـى (ماكسـيميان) ليكـون إمبراطـورًا مشـاركًا، كمـا عين نائبين ليخلفاهما، وحكم (ماكسـيميان) القسـم الغربي من الإمبراطورية في حين حكم (ديو كليشيان) القسم الشرقي، وبعد ذلك أسست القسطنطينية، وبعد موت الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول) عـام (٣٩٥م) انقسـمت الإمبراطورية إلى قسـمين: الإمبراطورية الرومانيـة الشـرقية، والإمبراطوريـة الرومانيـة الغربية. وأخـذت الإمبراطوريـة الغربية تضعف بالتدريج، حيث هاجم (الوندال) (شعب جرماني إسكندنافي، والقوط الغربيون، وشـعوب جرمانيـة أخرى كل من إسـبانيا والغال وشـمال إفريقيا، ونهـب القوط الغربيون مدينـة روما عام (٤١٠م). وسـقط القسـم الغربي مـن الإمبراطوريـة الرومانية في عام (٤٧٦م)، وعـزل الزعيـم الجرمانـي (أدواسـر) آخـر حاكـم للإمبراطوريـة الرومانيـة الغربية ويدعى (رومولوس أوغتولوس) عن العرش، وبدأ الزعماء الجـــرمان في تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة[٢].

---

(١) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١١٨-١١٩).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٧٨-١٨٣).

د. كثرة القبائل والعصائب الموجودة بالدولة

يشير ابن خلدون إلى أن كثرة القبائل والعصبيات من أسباب سقوط الحضارة واضمحلالها، بسبب اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها هوى عصبية تمانع دونها[١].

وقد عانت الدول والحضارات التي تشمل القبائل والعصبيات من سقوط وزوال سريعين، مثلًا؛ كانت المشكلات التي أثارتها القبائل العمورية باحتلال الجنوب السومري من أهم أسباب ضعف الحضارة البابلية، ما أسهم في انهيار إمبراطورية بابل في عهد آخر ملكين من الأسرة البابلية الأولى نتيجة مهاجمتها من قبل أربعة أعداء تباعًا: ساميو المناطق البحرية، وعيلاميو زاغروس، والحثيون من الشمال، ومربو الخيول الكاسيت الذين استوطنوا شمال عيلام. واحتلت القبائل البحرية جنوب الإمبراطورية البابلية، بينما احتل الكاسيت وسط وشمال بابل، وخلال المدة الأولى من احتلال الكاسيت لبابل عانت البلاد من دمار رهيب وكساد اقتصادي شديد[٢].

عانت الدولة الإسلامية بسبب البربر في شمال أفريقيا لأنهم أهل قبائل وعصبيات، فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي السرح عليهم، وعلى الإفرنجة شيئًا، وعادوا للردة والثورة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم، ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة[٣].

تحليل ومقارنة الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لسقوط الحضارات

يتضمن هذا الجزء الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون مع تحليلها ومقارنتها مع الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لسقوط الحضارات المختلفة في ضوء منهج ابن خلدون عن سقوط الحضارات.

---

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٠).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٩٦-١٠٦).

(٣) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٠).

أ. - اختلال التوازن الطبقي

يرى ابن خلدون أن اختلال التوازن الطبقي يقود إلى تدهور الحضارة واندثارها نتيجة القضاء على الطبقة المتوسطة وانعدام دورها وفاعليتها اجتماعيًّا وسياسيًّا ودينيًّا. فالطبقة العليا لا تنصر الحاكم في صراعه، وكذلك الطبقة الدنيا الذين يشعرون بتعرضهم للاضطهاد والظلم وسلب حقوقهم باستمرار[١].

وعند مقارنة ذلك مع الحضارات المختلفة يتضح أنها جميعها اتفقت مع فكرة ابن خلدون في أن اختلال التوازن الطبقي من أهم أسباب زوال الحضارة وانهيارها كما هو موضح في ما يأتي:

أ. في الحضارة السومرية أدى الصراع الطبقي إلى مشكلات اجتماعية خطيرة، حيث سيطر النبلاء على الثروات، ومارسوا شتى أنواع السيطرة على العبيد المزارعين، كما انتزعوا من الفلاحين مواشيهم وطيورهم، وأوانيهم النحاسية، وألبستهم، وخيرة الأشجار وأطيب الثمار، وبالرغم من الثورة الاجتماعية الإصلاحية التي قادها (أوركاجينا) لنشر الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، إلا أن مساعيه أحبطت بعد هزيمته من قبل (لوغلزغيري) الذي أعاد الأمور على ما كانت عليه واستمرت الأوضاع في التردي نتيجة استغلال النبلاء والحكام ومعاناة الشعوب والمحكومين، وإهمال أحوال البلاد[٢].

ب. في الحضارة البابلية كان العبيد يتمتعون بميزات أكثر من الأحرار الفقراء، وكان من حقهم الزواج من حرة ويصبح أبناؤهم أحرارًا، ما أدى في النهاية إلى التناحر بين الأحرار والعبيد، وأوجد تناقضًا بين مختلف الشرائح الحرة، فقد كانت دولة العبودية المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة، استبدادية ملكية

---

(١) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٧).

(٢) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٩٦).

مطلقة، حيث يحكم الملك بوساطة العديد من الموظفين والقضاة. وخلال المرحلة الثانية من حكم الكاسيت لبابل سخر الناس لخدمة القصر[١].

ج. في الحضارة الإغريقية دار صراع ضارٍ بين مختلف شرائح المجتمع، نجم عنه عدة انقلابات، قادتها الشرائح الجديدة الحرفية والتجارية، وكانت قوتها العظمى من الفلاحين الذين عانوا الأمرين بسبب نير النبلاء، فطرد شرائح كاملة من السكان ومصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة صار أمرًا عاديًّا. وحين كان الحزب الشعبي ينتصر ويقلب الأرستقراطية، كان يكبح النبلاء ويصادر أراضيهم ويوزعها على الفقراء، ويسهم في ازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب[٢].

د. في الحضارة الصينية كانت الشرائع الصينية تحابي النبلاء، فتعفيهم من كثير من الواجبات المفروضة على الفقراء والأجراء والفلاحين، شرط أن يؤدبوا أنفسهم إذا أخطؤوا، فقد كان القاتل من النبلاء يسمح له بأن ينتحر بقتل نفسه، وذلك أثار حفيظة عامة الشعب باعتبار أن في مقدورهم أن يؤدبوا أنفسهم أيضًا، ما أثار حدة الصراع الاجتماعي بين طبقة النبلاء والفقراء[٣].

هـ. في الحضارة الفرعونية أدى الصراع الطبقي الحاد الذي ثار بين طبقة النبلاء والأجراء والعبيد والخدم والفلاحين إلى ثورة، أسفرت عن سجن الفرعون وقتل النبلاء، والاستيلاء على قصورهم واستغلال بعضهم في العمل سخرة لدى العبيد والفلاحين والأجراء. وترتب على استقلال السادة عن الملك إلى زيادة الفقر والحاجة، حيث وقع الفلاحون والخدم والعبيد فريسة للاستبداد الملكي واستبداد السادة[٤].

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٠٤-١٠٦).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٢٩٠-٢٩١).

(٣) ديورانت: **قصة الحضارة: الهند وجيرانها - الشرق الأقصى (الصين)**، (مج٢-ج٤-ص٢٠).

(٤) دوما: **حضارة مصر الفرعونية**، (ص١١٢).

و. أمـا في الحضـارة الفينيقية فلم تشـهد المدن الفينيقية صراعًـا طبقيًّا نتيجة الاشتغال بالتجارة والرواج التجاري الذي كانت تعيشه المدن الفينيقية، وحالة الازدهـار حالت دون وقـوع ذلك الصراع والذي لا يتعـدى بعض الاضطرابات، حيث كانت تُخمد ويسيطر عليها بسهولة، كما كانت نظم الحكم الديموقراطية من أهم وسـائل الاسـتقرار والأمن، في ضوء قلة عـدد العبيد وضعف تأثيرهم على المجتمع الفينيقي[١].

أمـا الظلـم الاجتماعي الذي توطـد منذ بزوغ الممالـك التجاريـة والعبودية الغنية، وتطور العبودية، فقد أثار بعض الاضطرابات والمكائد التي لم تتوقف، وأسـهمت بصورة أو بآخرى في إضعاف الحضارة الفينيقية[٢].

ز. فـي الحضـارة الرومانية أدى نهب الأقاليم وابتزاز ثرواتهـا إلى تجمع الثروات في يد قلة من الحكام الأرسـتقراطيين وأصحـاب المصالح والأعمال وجامعي الضرائـب، فنشـأ نظـام رأسـمالي بسـبب اسـتحواذ فئـة قليلـة علـى الأراضي والأمـلاك، وبسـبب إفقـار الفلاحيـن والمزارعيـن الصغـار، بالإضافـة إلـى استخدام الملاك العبيد في زرع الأرض؛ فحلت البطالة والمجاعة بين طبقات كثيـرة من النـاس. وترتب علـى ذلك زيادة البطر والبذخ عنـد الأغنياء وإفقار الجماهيـر مـن السـكان وازدياد العبيد، فالتجـأ الفلاحون الذيـن طردوا وحل محلهـم العبيد إلى الهجرة إلـى روما، فازداد عدد الجماهير الفقيرة وارتفعت نسـبة البطالـة، وزادت الفجـوة بيـن الأغنيـاء والفقـراء، وزاد بينهـم الحقـد والكراهيـة، مـا ترتب عليه القيام بعدة ثورات لينـال الفقراء حقوقهم، وانضم

(١) كونتنو: **الحضارة الفينيقية**، (ص٤٤-٤٥).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٦٨).

بعض النبلاء للفقراء، ما ترتب عليه ارتكاب العديد من المؤامرات والاغتيالات التي أسهمت في ضعف الحضارة الرومانية وأفولها[١].

ح. وفي الحضارة الإسلامية جلب الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعاسةً وضنكًا، فقد انحرف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرون عن شرع الله، وفرطت الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما ترتب عليه كثرة الاعتداءات على بعضهم بعضًا، وتعرض النفوس للهلاك والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب، ونشبت حروب وفتن بين طبقات المجتمع لأسباب اجتماعية أو اقتصادية، ونشبت العداوة والبغضاء بين أبناء المسلمين. كما انتشر الظلم والفساد وترتب على ذلك ضعف سياسي وحربي واقتصادي وعلمي وأخلاقي واجتماعي، وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة والقضاء على أعدائها، فاستعمرت وغزيت فكريًا وانهارت حضارتها[٢]. كما أشاعت سياسة التفرقة في المعاملة بين المجتمعات روح البغضاء وجعلت بعض أبناء الدولة الإسلامية لا يأبهون بانهيارها، بل يتعاونون مع الأعداء ضدها، فقد انحاز بعض الأمويين للعرب، وقدموهم على الموالي في الرزق والجاه، وانحاز بعضهم الآخر للموالي ونقلوا قسمًا كبيرًا منهم إلى الشام، واستعان بهم معاوية ﷺ على الروم والجراجمة، بينما انحاز العباسيون للأتراك والأرمن وعينوهم قادة للجيش والجند وتخلوا عن العرب واستبعدوهم، فنالوا حنق العرب عليهم. كما كان التكوين القبلي للجيش من عوامل عدم الاستقرار، فقد كان العرب يقاتلون تحت لواء قبائلهم، فبقي الجيش مكونًا على أساس قبلي، ما ترتب عليه في أحيان كثيرة المشاحنات نتيجة حصول الاحتكاكات بين

---

(١) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٤-٦٦٥).

(٢) الحسن: **الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب الانهيار**، (ص٣٩٩).

القبائل وإثارة النعرات القبلية، فضلًا عن الفورة النفسية التي كانت تنتاب العرب جيلًا دون جيل[١].

ط. أما الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية) فقد أسفر الاضطراب الاجتماعي المتزايد عن ظهور بوادر القلق الاجتماعي في أوروبا عام (١٩١٤م)، فمنذ عام (١٩٠٥م) بدأت الاضطرابات الكبيرة ذات الطابع الثوري تنفجر في كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، بسبب ظهور النقابات العمالية التي أخذت تطالب بحقوق العمال، وتثير الإضرابات عن العمل يومًا بعد يومن كوسيلة ضغط لتنفيذ مطالب العمال ورفع أجورهم وتحسين مستويات معيشتهم. إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى عمق من المشكلة[٢].

ب. حياة البذخ والترف

يشير ابن خلدون إلى أن حياة البذخ والترف من أهم أسباب تدهور الحضارات وانهيارها، ويعدها بمثابة الحضارة المفسدة للعمران نتيجة رقة الطباع وضعف العصبية، وانطفاء الحماسة والاعتماد على الغير، والميل للدعة، وانقلاب خطر التوحش، ونسيان عوائد البداوة، فتضعف الهوية ويذهب البأس[٣].

وقد كانت حياة البذخ والترف التي عاشها الحكام وأعوانهم والكهنة والنبلاء من أهم أسباب انهيار الحضارات جميعها، لأن هذه الحياة -بغض النظر عن الحروب أو الاضطرابات- تستدعي فرض الضرائب والمصادرات، أو تسخير الناس للعمل من دون مقابل، وتحتاج إلى الكثير من النفقات، ومن أهم مظاهر ذلك في الحضارات المختلفة:

---

(١) العش: **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان**، (ص٣٥٠-٣٥١).

(٢) مخول: **موسوعة الحروب والأزمات الإقليمية في القرن العشرين: أوروبا**، (ص٢٨-٣٤).

(٣) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٦٥).

أ. في الحضارة السومرية سيطر النبلاء على الثروات، ومارسوا شتى أنواع السيطرة على العبيد المزارعين، إضافة إلى الهيمنة التي تثير غضب المنتجين المباشرين ومقاومتهم، حيث آذى الملك (لوجالندا) حقوق المشاعات، وأقام رقباء في كل مشاعات (لاغاش)، وفرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته، ولذلك قام الرقباء بنهب الناس لدفع تلك الضرائب وتحقيق أرباح ومنافع لهم، فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم وطيورهم، وأوانيهم النحاسية، وألبستهم، وخيرة الأشجار وأطيب الثمار، وكبدوا الناس تكاليف باهظة مقابل التصريح بدفن موتاهم أو إقامة المآتم والولائم، فضلًا عن مصادرة أجمل الخراف البيضاء، وفرض ضريبة خمسة شيقلات من الفضة على كل رأس، وإدخال حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية[١].

ب. أغرى الثراء الذي تعيشه بابل قبيلة الكاشيين، وبعد وفاة (حمورابي) بثماني سنوات اجتاحوا إمبراطورية بابل وعاثوا في أرضها فسادًا يسلبون وينهبون، ثم ارتدوا عنها، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة، واستقروا آخر الأمر فاتحين حاكمين، ما جعل بلاد بابل مسرحًا للفوضى والاضطراب العنصري ولم تسلم طرق التجارة من مخاطر إغارة اللصوص عليها، ما حد من الحركة التجارية وقلل إلى حد كبير من النشاط التجاري[٢]. وخلال المرحلة الثانية من حكم الكاسيت لبابل نهبت المشاعات وأعضاؤها قبل أن يرتاح أصحابها من عناء الحرب، وتجدد الاضطهاد، وفتحت ورشات لبناء معابد جديدة عن طريق تسخير الناس لخدمة القصر وانتزاع أملاكهم وسلب أسر الفلاحين، واستيلاء الشيوخ على الأموال، وارتفاع أرباح المرابين، حيث راح بعضهم يفرض الضرائب الملكية ويسرقون الناس بلا رحمة أو شفقة[٣].

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٨-٨٩).

(٢) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٩٤-١٩٥).

(٣) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٠٤-١٠٦).

ج. في الحضارة الإغريقية كانت طبقة العبيد هي الطبقة المنتجة، وتحول بقية أفراد المجتمع إلى طبقات مستهلكة، حتى إنهم كانوا يتجرون بالعبيد، ويؤجرونهم في حالة عدم وجود عمل لدى مالكهم. وطرد النبلاء شرائح كاملة من السكان وصادروا ممتلكاتهم ومنازلهم، وتعرضت حياة العامة في المدن إلى الاهتزاز بفعل تراجع الصادرات وتناقص الموارد الاقتصادية، علمًا بأن بعض البلدان التي كانت تشكل أسواقًا خارجية لبلاد اليونان راحت تنمي منتجاتها مع السلع التي كانت تستوردها من المدن اليونانية، ما زاد من التدهور الاقتصادي، ودفع بعض اليونانيين إلى العمل جنودًا مرتزقة في الفرق الفارسية بصورة خاصة، بل إن أثينا أصبحت تعتمد أحيانًا على هؤلاء الجنود[١].

د. في الحضارة الصينية سعى النبلاء إلى زيادة سيطرتهم على أكبر قدر من الأراضي والثروات، واستمرت الحروب التي كانت الدول الظافرة تضم خلالها أراضي الدول المقهورة إليها، ما أدى إلى نقص عدد الدول الصينية من ثلاث مئة دولة إلى عشرينن دولة فقط، وكان المنتصرون يستعبدون العاملين في مزارع المقهورين، وكان النبلاء يقاتلون في مركبات بخلاف الفلاحين والفقراء الذين جندوهم في القتال والذين كانوا يقاتلون راجلين، ومن ثم بدؤوا يطالبون بحقوق مثل حقوق النبلاء، فأهمل العمل في الأراضي والأنشطة الصناعية والتجارية، واهتمت الغالبية بالاستعداد للقتال والاستيلاء على مغانم الحروب مع الدول المجاورة وضمها، ما ترتب عليه ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية، وتدهور الأحوال الاقتصادية[٢].

---

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٩).

(٢) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٩٠).

هـ. في الحضارة الفرعونية ترتب على استقلال السادة عن الملك زيادة الفقر والحاجة، حيث وقع الفلاحون والخدم والعبيد فريسة للاستبداد الملكي واستبداد السادة، فكانوا ينزعون من الفلاحين والعبيد والفقراء أموالهم وحبوبهم ومحاصيلهم ويمنعونهم من الاحتجاج، ويضربونهم بلا رحمة، وإن ذهبوا ليشكوا الابتزاز والاغتصاب والقهر لا يجدون منصفًا[١].

و. في الحضارة الرومانية أدى نهب الأقاليم وابتزاز ثرواتها إلى تجمع الثروات في يد قلة من الحكام الأرستقراطيين وأصحاب المصالح والأعمال وجامعي الضرائب، فنشأ في روما نظام رأسمالي مركز نتج عنه الاستحواذ على الأراضي والأملاك بأيد قليلة وإفقار الفلاحين والمزارعين الصغار، إضافة إلى استخدام العبيد في زرع الأرض؛ فحلت البطالة والمجاعة بين طبقات كثيرة من الناس. وترتب على ذلك زيادة البطر والبذخ عند الأغنياء وإفقار الجماهير من السكان وازدياد العبيد وعملهم، وزادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وزاد بينهم الحقد والكراهية، ما ترتب عليه القيام بعدة ثورات لنيل الفقراء حقوقهم[٢]. وكان تدفق الأسرى من المناطق المغلوبة من أهم أسباب طرد المزارعين الصغار من العمل في مزارع الأغنياء لكي يحل العبيد مكانهم، ما أدى إلى انتشار البطالة والفقر وزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء[٣].

ز. في الحضارة الإسلامية أدى تبذير ملوك الدولة العثمانية في الإنفاق على القصور الملكية التي استهلكت أحيانًا ثلث واردات الدولة، فضلًا عن زواج السلاطين بالأجنبيات وتسلط هؤلاء الأجنبيات على عواطفهم وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية، وتحكمهن بمقدرات الدولة وأموالها إلى إهمال التطور أو البحث العلمي الكفيل بتحقيق التقدم والتنمية في المجالات كافة.

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٣١-١٣٤).

(٢) باقره: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٤-٦٦٥).

(٣) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٨٣).

obeikan.com

كما أدت زيادة الدخل والثراء الذي عاشته الدولة الإسلامية من جراء خراج الأراضي الكثيرة التي فتحها المسلمون الأوائل إلى رفع المستوى الاقتصادي لغالبية سكان الدولة الإسلامية، ومن ثم زيادة النزعة المادية للسكان والإقبال على الدنيا وزخرفها، وقلة المواطنين المستعدين للتضحيات في سبيل وحدة البلاد أو الدفاع عنها وما يتطلبه من جهاد في سبيل الله قد يفضي إلى الشهادة[١].

ح. أما الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية) فقد ارتكزت على النزعة المادية البحتة، وتعظيم الملكية الفردية في النظام الرأسمالي والملكية الجماعية في النظام الاشتراكي، إلا أن هذه الأنظمة أثبتت فشلها لافتقادها التضامن والتكافل الاجتماعي الذي عني به النظام الإسلامي، لذلك عجز النظام الرأسمالي أو النظام الاشتراكي في مواجهة الأزمات الاقتصادية، حيث أدت الملكية الفردية غير المقيدة إلى تفاوت هائل في الدخول والثروات أسفر عن صراع مرير بين الطبقات الغنية والفقيرة. وكان نتيجة حتمية للاعتماد على جهاز السوق في إطار المصالح الشخصية وقوع الدول الرأسمالية في أزمات حادة من أبرزها الكساد الكبير عام (١٩٢٩م)، وكذلك الأزمة المالية العالمية عام (٢٠٠٧م) الذي أدى إلى تعطيل الملايين من هذه الدول. كما أن تطبيق النظام الرأسمالي يترتب عليه عدة مساوىء، من أهمها: نشأة ظاهرة الاحتكار للسيطرة الكاملة على الإنتاج وسقوط مقولة السيادة للمستهلك، إضافة إلى سوء توزيع الدخل والثروة وما ترتب عليه من زيادة الأغنياء غنى وزيادة الفقراء فقرًا، وظهور الأزمات الاقتصادية الدورية التي تمهد للاستعمار والتنافس الاستعماري[٢]. أما النظام الاشتراكي فقد أخذ

---

(١) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٢-٣٢٤).

(٢) العوجي، توفيق: **مدخل لدراسة علم الاقتصاد من منظور إسلامي**، **جامعة بيروت الإسلامية**، بيروت، د.ت، (ص١٣-١٥).

ينهـار في الدول التي نما فيهـا، حيث ضاقت صدور الجماهير بنظام يلغي دور الفكر الإنسـاني والإحساس المتميز للإنسـان ويجعل مصيـره كله خارجًا عن إرادته، حيث سـلب من الفرد أبسـط حقوق الحياة وهو حق الملكية، وعجز عن توفيـر السـلع الاسـتهلاكية الأساسـية[١]، حيث ترتب على النظـام الاقتصادي الاشـتراكي قتـل الحافـز الفـردي للإنتـاج، وعـدم قـدرة هيئـات التخطيـط الاشـتراكي على حل المشـكلة الاقتصادية نتيجة عدم قدرتها على التعبير عن طلبـات المسـتهلكين وأذواقهم، فلا يمكن لهذه الهيئـات أن تحقق التوازن بين العرض والطلب لمئات الألوف من المنتجات[٢].

يكشـف التحليل السـابق أن ابن خلدون سـبق عصره، فوضع سـنن قيام الحضارات وسـقوطها التي فسـرت قيام الحضـارات القديمة والمعاصرة وسـقوطها، وكذلك تحديد الأسـباب التي تؤدي إلى قيام الحضارات القائمة في المسـتقبل وسقوطها، وهذا ينم عن شخصية تتمتع بقسط وافر من العلم والخبرة والدراية، وبالرغم من تركيزه على أسباب انهيـار الحضـارات عـن طريق الحضارة المفسـدة للعمـران، إلا أن منهجه مـا يزال مثلًا يحتذى في البحث والتحليل.

---

(١) محمود: **دور الاقتصاد الإسلامي في علاج المشكلات الاقتصادية التي عجزت النظم الوضعية عن علاجها**، (ص٨-١٢).

(٢) العوجي: المصدر السابق، (ص١٨-١٩).